﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾ [الكهف: 55]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

ربْـــطُ جـــدالِ الإنسان وكفرانه قَدَرُ الله غالِبٌ لا رادَّ له في إمكانه

لمّا بيَّنَ الله تعالى إعراضَهُم عنِ القرآنِ وعن الإيمان؛ بيَّن سببَهُ وموجِبَهُ عندهم، فجاءت هذه الآيةُ الكريمة[1]، وأيضًا لَمَّا أخبر الله ﷻ عن الذي تضمَّنَهُ القُرآنُ الكريمُ مِن الأمورِ المستوجبةِ للإيمان، وكان الظّاهر ألّا يمتنعَ أحدٌ من الإيمان به - وإن كان الإنسانُ مجبولًا على الجدَل المُفْرِط - لشدَّة ظهور آياتِ القرآنِ وبيانِها؛ فقد جاءت هذه الآيةُ الكريمة لبيان سببِ امتناعِهم عن الإيمان به.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَنَعَ﴾: يدورُ الأصل (منع) على حَجْزِ ظاهرِ الشَّيء ما في باطنه حجزًا شديدًا، فلا يكون فيه مَنْفَذٌ إلى ما بداخله بحيث لا يخلصُ إليه، ومنعُ الشَّيء بمعنى تحجيره والحيلولة دون الوصولِ إليه مع إرادتِه والرَّغبة في تحصيلِه، ومنهُ مَنْعُ العطاء، ويُقال: رجلٌ منيعٌ، لا يُخْلَصُ إِلَيْهِ، ويُقال أيضًا: رجلٌ مَنوعٌ ومَنّاع؛ إذا كان بخيلًا ممسِكًا؛ لأنَّه لا يخلص إلى مالِه، فكأنَّه في حَجْرٍ، ويأتي المنعُ بمعنى الحجزِ دون الوصول إلى شيءٍ، وبمعنى الصَّدِّ عن الشَّيء، ويُقال: امتنعَ مِنَ الأمرِ بمعنى كَفَّ عنهُ.

2) ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾: يدور معنى الهدى على تبيُّن الوجهةِ والكشف عنها، والهدايةُ هي دلالةٌ بلطف إلى طريق الرُّشد، ومنه: الهديَّةُ، وتُسمّى الإبلُ المتقدِّمة الهاديةَ؛ لأنَّها تكشف الطَّريق الصحيحَ لما بعدها،

(1) البقاعي، نَظْم الدُّرر: 12/ 87.

فتتبيَّن الوجهة مِن اتجاه أعناق الإبلِ الهادية، وهوادي الوحش هي متقدِّماتها الهادية لغيرها، وخصَّ ما كان بمعنى الدَّلالة بـ(هديتُ)، وما كان بمعنى الإعطاء بـ(أهديت)، واستعمالُ الهداية في قوله تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾ [الصّافات: 23]، وقوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤﴾ [الحجّ: 4] على سبيل التَّهكُّم، والهدايةُ قد تكون بمعنى الدلالة إلى طريق الرُّشدِ والحقِّ، فتكونُ بمعنى البيان والدلالةِ إلى ما يوصل، وقد تكون بمعنى الاهتداءِ، فتكونُ بمعنى التَّوفيقِ والدلالة الموصلةِ، والهُدَى نقيضُ الضَّلال[1]، ولفظُ ﴿ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ هنا بمعنى: بيانِ الله تعالى، فيشملُ القرآنَ والرَّسولَ ﷺ؛ لأنَّ كليهما دالٌّ إلى الحقِّ والإيمانِ بالله[2].

3) ﴿سُنَّةُ﴾: السُّنَّةُ في أصل اللُّغة هي الطَّريقة، ويدور معنى الكلمة على جريان الشَّيءِ وإرساله في سهولةٍ، وإذا أُطلق لفظُ السُّنَّة على شيءٍ، فيُقصد به ما لا يختلف، ولا يتبدَّل، والسُّنَّة: السّيرة، حَميدَةً كانَتْ أَوْ ذَميمَةً؛ لأنَّها بمعنى الطَّريقة، والجَمعُ سُنَنٌ، و﴿سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ بمعنى: طريقةِ الأمم المكذِّبة رسلَها قبلَهم؛ وهي أنَّهم إذا لم يؤمنوا؛ عُذِّبوا، وهَلَكوا، أيْ: لا يؤمنون إلّا في ذلك، والإيمان لا ينفعهم في ذلك الوقت[3].

4) ﴿قُبُلًا﴾: القُبُل: هو إقبالك على الإنسان باستقبالِ وجهه، كأنَّك لا تُريدُ غَيره، والقُبُلُ والقِبَلُ بمعنى: المقابلة والعيان[4]، وذهب بعض اللُّغويّين إلى أنَّ (قِبَلاً) بمعنى: المعاينةِ والمقابلة، و﴿قُبُلًا﴾ جمع: قبيلٍ، أي: جماعةً جماعةً، والمعنى: يأتيهم العذاب، وهم جماعاتٌ، أو بمعنى: الضَّرب والنَّوعِ؛ والمعنى: يأتيهم أصنافًا مِنَ العذاب، كلُّ صنفٍ منه غيرُ صاحبِه[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخْبِرُ تَعالَى عَنْ تَمَرُّدِ الكَفَرَةِ في قَديمِ الزَّمانِ وحَديثِهِ، وتَكْذيبِهِم بالحَقِّ البَيِّنِ الظّاهِرِ مَعَ ما يُشاهِدونَ مِنَ الآياتِ والآثارِ والدَّلالاتِ الواضِحاتِ، وأنَّه ما منع هؤلاء المشركين

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (هدى).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 49، والواحدي، الوجيز، ص: 665، والبغوي، معالم التنزيل: 3/ 201، وابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 92.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 49، والماتُريدي، تأويلات أهل السُّنَّة: 7/ 186، والواحدي، التفسير البسيط: 14/ 58.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (قبل).
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 268، والواحدي، التفسير البسيط: 14/ 60، والراغب، المفردات: (قبل).

من أن يؤمنوا باللّه، حين جاءهم القرآنُ وهديُ رسول اللّه ﷺ، وأن يستغفروا ربَّهم بالتَّوبة عمّا فرَطَ منهم مِنَ الذُّنوب إلّا تعنُّتهم وعنادهم الذي جعلهم يطلبون أحدَ أمرَيْن: إمّا يطلبون عذابَ الاستئصالِ بنحوِ قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: 32]، وإمّا أن يأتيَهم بأنواع من العذاب والبلاء في حالِ رؤيتِهم له – وهم في الدُّنيا – عيانًا[1].

اعتقادُ الكافرِ أنَّه مُصيبٌ في معوجِّ إيمانِهِ، يقتضي التَّأسُّف عليه في إبّانه

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ تعدُّدِ الغرضِ مِنَ الخبرِ في الآية:

يدلُّ الخبرُ في هذه الآية على غرضَيْن؛ إذ يُفيد التَّعجيب من حالِ المشركين الذين لا يُقْدِمونَ على الإيمانِ إلّا عِنْدَ نُزولِ عَذابِ الاسْتِئْصالِ، فيَهْلَكون، أَوْ أَنْ يَتواصَلَ أَنْواعُ العَذابِ والبَلاءِ حالَ بَقائِهِم في الحَياةِ الدُّنْيا، فكأنَّهم لا يُقْدِمونَ على الإيمانِ إلّا عندَ وقوعِ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ، والعاقِلُ لا يَرْضَى بحُصولِ هَذَيْنِ الأَمرَيْنِ، فأفادَ أَنَّ حالَهُم شَبيهٌ بحالِ مَنْ علَّقَ العَمَلَ على هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ[2]، كما يُفيد التَّأسُّفَ عليهم والتَّنبيهَ على فساد حالهم؛ لأنَّ هذا المنعَ لم يكن بقصدٍ منهم أن يمتنعوا ليجيئَهم العذابُ؛ وإنَّما امتنعوا هم مع اعتقادهم أنَّهم مصيبون، لكنَّ الأمر في نفسِه يسوقهم إلى هذا، فكأنَّ حالهم تقتضي التأسُّف عليهم[3].

التَّعجيبُ مِن حالِ المشركين، والتَّأسُّفُ على كفرِهم وعنادِهم

بلاغةُ الوصلِ في الآية الكريمة:

جاءت الجملةُ بطريق الوصلِ بعطفِها على جُملَةِ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، والجهةُ الجامعة بين الجملتَيْن هي أنَّه لمّا صرَّفَ

الأَوْلَى بالمشركين المسارعةُ إلى الإيمان بعد ظهورِ الحُجج والأدلَّة عليه

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 201، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 172، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 167.

(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 16/ 475، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 193.

(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 525.

اللّه تعالى في القرآن للنّاس من كلِّ مثلٍ، وكانت آياتُه بيِّنةً واضحةً تتضمَّنُ الحجج والأدلَّة على الإيمانِ باللّه وبرسولِه ﷺ؛ كان الأَوْلى بالمشركين أن يؤمنوا، فجاءت هذه الآيةُ لبيان أنَّهم لم يؤمنوا؛ بل فعلوا أكثر من هذا إذْ تمادوا في طغيانِهم، فطلبوا أن تأتيهم سنَّة الأوَّلين، أو يأتيهم أنواعُ العذاب عيانًا لكي يؤمنوا، ليكون على معنى الجدلِ، ففيها تقريرٌ كذلك لجملة ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾، ويُلمح في الآية معنى السَّببيَّة والتَّفريع لجملة ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ بحَيْثُ لَوْ عُطِفَتْ عليْها بفاءِ التَّفريعِ؛ لَكانَ ذَلِكَ مُقْتَضَى الظّاهِرِ، لكنَّها عُطِفت بالواو اهتمامًا بمضمونِها وجعلِه كالمستقلِّ في ذاتِه؛ إذْ أُريدَ أَنْ يَكونَ حَقيقَةً مُقَرَّرَةً في النُّفوسِ[1].

إيثارُ لفظ ﴿مَنَعَ﴾ دونَ غيره من مرادفاته:

عبَّرَ السّياقُ الحكيم بلفظ المنعِ دون غيره من مرادفاتِه؛ للإيذان بشدَّة صدِّهم، فكأنَّهم وضعوا أنفسَهُم في جدار حصنٍ منيع محميٍّ كي لا يصلَ الإيمانُ إليهم، وللتَّنبيه على أنَّهم حجزوا غيرَهم عن الإيمانِ؛ ففي التَّعبيرِ بلفظ المنعِ إشعارٌ بشدَّةِ طغيانِهم وكمالِ عنادهم وتماديهم في كفرِهم؛ فإنَّ إسنادَ المنعِ إلى الفاعل: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾: إسنادٌ له إلى أنفسهم؛ لأنَّهُ مِن اعتقاداتهم، ويدلُّ على رسوخِ هذا الفاعلِ في نفوسهم، وتمكُّنِه فيهم؛ وذلك أنَّ الإعراضَ عن القرآنِ الذي فيه التَّصريفُ للنّاسِ مِن كلِّ مَثَلٍ يستلزمُ ذلك.

مِن أشدِّ الكفرِ ألّا يكتفيَ الكافرُ بكفره، بل يصدُّ غيرَهُ عنِ الإيمانِ

نكتةُ استخدامِ (أل) في لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

(أل) هنا عهديَّةٌ، فيكون المرادُ بالنّاس كفّارَ عصر رسول اللّه ﷺ، الذين تولَّوا دفْعَ القرآنِ وتكذيبه وتكذيبِ رسول اللّه ﷺ[2]، وعبَّرَ

نبذُ الإيمانِ مستمرٌّ في النّاس في كلِّ زمان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 349.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 525.

بلفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ للإشعار بأنَّ دَفْعَ الإيمانِ والامتناعَ منه مستمرٌّ في النّاس غيرُ منقطع، فيدخل في اللَّفظ كلُّ مَنْ لم يؤمن باللّه ورسولِه ﷺ في الأزمان المستقبلة، كما أنَّه لمّا ذكر ﴿ٱلْهُدَىٰٓ﴾، ناسب أن يذكر لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ للإيذان بأنَّ الهدى للنّاس جميعًا، وليس لفئةٍ معيَّنة.

سرُّ وضعِ المُظْهَرِ موضعَ المُضْمَرِ في السّياق:

العدولُ عن الإضمارِ مؤكِّدٌ للخبرِ، ومُشعِرٌ باستقلاليَّة الجملة وعمومِها

لمّا كان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (وما مَنَعَهُم أَنْ يُؤْمِنوا إذْ جاءَهُمُ الهُدَى) لقرب ذِكْر النّاس في الآية السابقة في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ﴾؛ كان العدولُ عن الإضمار إلى الإظهار للإشعارِ باستقلاليَّة الجملةِ، وبأنَّها في مقام جملة التَّذييل في عمومِها وكُلِّيَّتها، وبأنَّها أُخرِجت مخرجَ المَثَل في حكايته والتَّمثُّل به، لكثرة ما يقعُ مثلُ هذا الأمر من الكفّار وتواليه منهم، فتَكونُ فائِدَةً مُسْتَقِلَّةً تَسْتَأْهِلُ تَوَجُّهَ العُقولِ إلى وعْيِها لذاتِها لا لأَنَّها فرْعٌ على غيرها[1].

وأظهَر التنزيلُ أيضًا؛ لتوكيدِ المعنى الذي جرى لفظُ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ فيه؛ لعظيمِ غرابته وشذوذِه، فإنَّ المتلقِّي مِن شأنه أن يستغربَ حالَ هؤلاء الناسِ، ويتعجَّبَ منه غايةَ العَجَبِ قائلًا: أهولاءِ الناس الذين لم يؤمنوا إذ جاءهم الهدى، ويستغفروا ربَّهم، والذين لم يمنعهم مِن الإيمان والاستغفار إلّا اعتقادُ ما بعد ﴿إِلَّآ﴾ في الآيةِ؟ أهؤلاءِ هم الذين صرَّفَ اللّه لهم من كلِّ مثَلٍ؟ فلَمَّا أعادَ القرآنُ ذِكْرَهُم بالاسم المُظْهَر؛ كان كأنَّهُ قال: نعم، هؤلاء الناسُ هنا في هذه الآيةِ هم النّاسُ في الآيةِ السابقة، وفي الإظهارِ تودُّدٌ إليهم وترغيبٌ شديدٌ، كما أنَّ فيه إشعارًا بالتهديدِ والغضبِ والترهيبِ.

دلالةُ حذفِ الجارِّ (مِن) قبلِ: ﴿أَن يُؤْمِنُوٓا۟﴾:

لمّا كان التَّقديرُ: (وَما مَنَعَ النّاسَ مِنْ أَنْ يُؤْمِنوا)؛ كان الكلامُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 349.

في الآية على حذف الجارِّ، فيكون منصوبًا بنزع الخافضِ[1]، ونكتةُ حذف الجارِّ وجريانُ الكلام على تعدّي الفعل ﴿مَنَعَ﴾ إلى مفعولَيْن بيانُ استغراق المنع حقيقةَ الإيمانِ وأنواعَهُ وما يوصلُ إليه، وهذا مؤسَّسٌ على أنَّ النَّفسَ المُنصرِفةَ عن الإيمان - من بعدِ التصريفِ المذكورِ في الآيةِ السابقةِ - مِن شأنِها أن يكونَ كفرُها بهذه الصِّفةِ، وفي حذفِ (مِن) إشارةٌ إلى سَفَه المُحدَّثِ عنهُ، بما فيه مِن قَبولِ الكُفر والشِّرك بشدَّةٍ، والذي صورتُهُ التَّعَدِّي بدون واسطةٍ.

قَبولُ الكُفر والشِّرك إشارةٌ إلى سَفَه المُحدَّثِ عنهُ

فائدةُ التَّعبيرِ بالمصدر المؤوَّل ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾:

عُبِّرَ بالمصدر المُؤوَّلِ؛ للإشعار بأنَّ مُطلقَ الإيمانِ مِن غير أيِّ قيدٍ أو وصفٍ زائدٍ عليه يكفي في دفعِ العذابِ والنَّجاةِ منه، فإنَّ إخراجَ الإيمانِ في صورةِ المضارعِ يُفيدُ هذا، ولو عُبِّرَ بالاسمِ (الإيمان)؛ لأفاد وصفًا زائدًا، مِن الثَّباتِ عليه وكمالِه، وأيضًا في مجيءِ المصدرِ المُؤوَّلِ توسُّلٌ إلى ذِكْرِ الفعلِ المضارعِ الذي يُفيد تجدُّدَ امتناعِهم عن الإيمان، وذمَّهم على تركِه[2]، فالمنعُ مِن تجدُّدِ الإيمانِ يلزمُ منه تجدُّدُ الامتناعِ عن الإيمانِ، وقد كان منهم ذلك مع التَّصريفِ مِن كلِّ مَثَلٍ للنّاسِ، وهذا خلافُ الأصلِ الذي هو تجدُّدُ الإيمانِ، والتَّرقِّي فيه؛ للوصولِ إلى درجاتِ الكمالِ، أي: وما منع الناسَ مِنَ التَّرقِّي في كمالاتِ الإيمانِ ومقاماتِه، وكذلك الاستغفارُ، وذلك التجدُّدُ الذي يترقَّى بهم في المذكورِ هو ما كان ينبغي أنْ يترتَّبَ على التصريفِ مِن كلِّ مثَلٍ في القرآنِ.

مُطلقُ الإيمانِ يكفي في دفعِ عذابِ الاستئصالِ والنَّجاةِ من الوبال

نكتةُ حذفِ متعلَّقِ الفعل ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾:

حُذِفَ متعلَّقُ الفعل في قولِه: ﴿يُؤْمِنُوٓاْ﴾ لإفادة طلبِ تحقُّقهم بأصل الإيمانِ بأن يكون وصفًا ثابتًا لهم، ويُحْتَمل أن يكونَ على معنى

أفادَ الحذفُ لزومَ وصف الإيمانِ وعمومَ المعنى

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 296، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 285، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 350.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 12/ 88.

العموم، ليكون التَّقديرُ من أن يؤمنوا بالله تعالى وبالرَّسول وبالقرآن، وبكلِّ ما يجبُ الإيمانُ به، وهذا الوجهُ الثاني هو الأبلغُ والأعلى في نورِ السياقِ القريبِ؛ فإنَّ اللهَ صرَّفَ في هذا القرآنِ للناسِ مِن كلِّ مثَلٍ، وهذا التَّصريفُ يقتضي العمومَ؛ لاشتمالِ المُصَرَّفِ على معاني التَّوحيد والنُّبوَّة والسَّمعيّات والغيبيّات إلى آخرِ ما صُرِّفَ في الذِّكرِ الحكيم، وحَذْفُ المُتعلَّقِ ليس للعموم فحسب، وإنَّما ليترتَّبَ عليه أن يَلْحَظَ المُتلقِّي التَّنادي والتَّشاكُل بينَ هذا الحذفِ والمحذوفِ، وبينَ معنى التصريفِ المذكورِ في الآيةِ السّابقةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بظرف الزَّمان ﴿إِذْ﴾:

لا عُـذرَ لِمَـن كفر بعد ورودِ الهُدى وورودِ الخبر

لَمَّا كانَ النَّصُّ على ظرفِ الزَّمانِ الَّذي جاء فيه الهُدى لأهل الكفرِ والشِّركِ دالًّا على تعظيمِه، وكان مجيءُ الهُدى مُضْفيًا عليه معنى التَّعظيم أيضًا، وكانَ هذا الظَّرفُ متعلِّقًا بالفعلِ ﴿يُؤْمِنُوٓاْ﴾؛ دلَّ على تعظيم حصولِ الإيمانِ في زمانِه، فمجيءُ الهُدى سببٌ عظيمٌ في حصولِ الإيمانِ، ويكونُ في ذلك ترغيبٌ شديدٌ في أن يكونَ منهم ذلك الإيمانُ حينَ مجيء الهُدى ووصولِه إليهم مِن غير مُهلةٍ.

سرُّ تعدّي الفعل ﴿جَآءَهُمُ﴾ إلى المفعول بنفسه:

لا حُـجَّـةَ لِـلـكـافـريـن في الـكـفـران بعد سـطـوعِ الـهُـدى بالإيقانِ

لمّا قالَ تعالى: ﴿جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾؛ قُدِّمَ المفعول على الفاعل، فتعدّى الفعلُ إلى المفعول بنفسِه، ولو أُخِّرَ المفعولُ؛ لقيل: (إذ جاء الهدى إليهم)، فأفاد تقديمُ المفعول أمرَيْن: إنجازَ الغرض من التَّقديم، وتعدّيَ الفعل بنفسِه، فأمّا تقديمُ المفعول؛ فلإفادة عدمِ تأخُّر الهُدى عنهم، وسرعة مجيئه إليهم، وأنَّه أنعمَ عليهم بالاهتمام بهم؛ إذ جاءهم الهدى، وأمّا تعدّي فعلِ المجيء بنفسِه؛ فلإفادة أنَّ الهُدى - الذي هو بمعنى البيان والدَّلالة على الرُّشد - قد استوعبَهم، وأحاط بهم، فهو بين أيديهم، وقد حضّوا عليه؛ للتَّنبيه على أنَّه لا حجَّةَ لهم في الامتناع من الإيمانِ بعد أن جاءهمُ الهُدى، ولو قيل: (إذ جاء

الهدى إليهم)؛ لاحتُمِلَ أن يكونَ الهُدى قد وصلَ إلى موضعٍ قريبٍ منهم، ولم يحصلوا عليه.

نكتةُ إيثارِ لفظِ (الإتيان) على (المجيء):

تنبيهٌ على سهولة حلولِ العذابِ بهم، وعظمة الهُدى الوارِدِ مِنَ الله

عُبِّر بلفظ الإتيانِ في قولِه: ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾؛ للإشعار بسهولةِ إتيانِ العذاب، وأنَّه يَحِلُّ بهم، ويعتَريهم إنْ لم يؤمنوا، ويستغفروا ربَّهم، وأنَّ سُنَّةَ الأوَّلينَ نافذةٌ فيهم لا محالة، وعُبِّرَ بالمجيء في قولِه: ﴿جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ مجيء الهدى أمرٌ عظيم، فهو مجيء ذو شأنٍ وخطَرٍ؛ لغلبة حُجَّةِ القرآنِ العظيم، وإلزامِه مَن يُخاطبُهم بالدَّليلِ[1]، فكان ينبغي الانتفاعُ منه، والتَّمسُّك به.

بلاغةُ الاستعارةِ في الفعلِ ﴿جَآءَهُمُ﴾:

القرآنُ ذو برهانٍ مقنِعٍ؛ لما فيه مِن التَّصريفِ في كلِّ مثَلٍ مبدعٍ

في التَّعبيرِ بالمجيء مجازٌ لغويٌّ، والأصل: إذْ نزل إليهم الهُدى، فلمّا استُعير له المجيء - على سبيلِ الاستعارة التصريحيَّة التبعيَّة؛ لأنَّها في الفعل - قيل: ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾، والغرضُ الذي له كانت الاستعارة هو القوَّةُ، فنزولُ القرآنِ نزولُ قوَّةٍ، والدَّاعي له مِن السّياقِ هو ما ذُكِرَ بشأنِه في سياقِ السِّباقِ القريبِ مِن أنَّ اللَّهَ قد صرَّفَ فيه للناسِ مِن كلِّ مَثَلٍ، فهو إذًا ذو حُجَّةٍ غالبةٍ قاهرةٍ ودليلٍ عليٍّ باهرٍ، فهو مُلْزِمٌ القومَ وغيرَهُم بما يقولُ بالبرهانِ الجليِّ المُقْنِعِ لا محالةَ.

فائدة (أل) في قولِه: ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾:

بيانُ أنَّ الهدى مرتبطٌ بالقرآنِ العظيم، وهدى الرَّسولِ الكريم

لمّا كان ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ هنا بمعنى الدَّلالةِ إلى طريق الحقِّ وبيان طريق الرُّشد؛ كانت (ال) جنسيَّة لتُفيد الاستغراق، فيكون اللَّفظ مستغرقًا كلَّ معاني الهدى، والظّاهر أن يكون المرادُ مِنَ الهُدى: القرآنَ، أو الرَّسولَ محمَّدًا ﷺ، أو كليهما[2]؛ لأنَّهما نِعمَ الهُدى، وهما أقربُ إلى

(1) محمود حمدان، الإتيانُ والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، ص: 58، 60.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/ 385، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 194.

المخاطَبين، ويدخل فيه كلُّ ما كان بيانًا وطريقًا للإيمانِ باللّه تعالى مِنَ الأدلَّة العقليَّة وغيرها مِنَ الكُتُبِ الإلَهيَّةِ غيرِ المُحرَّفةِ وأَقْوالِ الأَنْبياءِ الصّحيحةِ كُلِّها[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمصدر ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾:

التَّعبيرُ بالمصدرِ للمبالغةِ في المعنى مفيدٌ في البيان

عُبِّرَ بصيغة المصدر ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ عن اسم الفاعل الهادي، والمُراد به القرآنُ الهادي إلى الإيمان بما فيه من المعاني البيّنة الظّاهرة، ولإعجازِه المبين الذي جاء بلسان الرَّسول محمَّدٍ ﷺ، أو المرادُ به الرَّسولُ الدّاعي إلى الإيمانِ، ونكتةُ العدول إلى المصدر هي المبالغة في المعنى، فهو في نفسِه هدًى، وهو هادٍ للنّاسِ إلى طريق الحقِّ، وهذا الإبلاغُ بالتَّعبيرِ بالمصدر، لا يضيفُ شيئًا إلى معنى المصدر بالنِّسبة للقرآن، وإنَّما يُصَوِّرُ حقيقةَ معناه في القرآنِ، كأنَّ القرآنَ تجسَّدَ من الهدى، وبُني منه، وفي السّياق القريب ما يدلُّ على ذلك، وما يتأسَّسُ عليه ذلك، وهو قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، فإذا كان في القرآن ذلك التَّصريفُ؛ أفلا يكونُ هدًى؟.

دلالةُ عطفِ جملة ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا۟﴾:

الإيمانُ يقتضي الاستغفارَ، ودوامَ التَّوبة إلى العزيز الغفّار

لمّا عُطِفَ الاستغفارُ على الإيمان؛ كان من قبيلِ عطْفِ الخاصِّ على العامِّ لإفادة التَّعميم، وفيه إشعارٌ بعلّيَّة المعطوف عليه للمعطوف، فالإيمان سببٌ للاستغفار؛ ليفيد العطفُ العنايةَ بالاستغفار والاهتمامَ به، فكأنَّ الاستغفارَ قد طُلِبَ مَرَّتَيْن، أي: مَرَّةً تلميحًا؛ لأنَّه ملحوظٌ في ضمن ﴿أَن يُؤْمِنُوٓا۟﴾، وأخرى تصريحًا بمجيئه معطوفًا، وفيه كذلك تَلْقينٌ للمُكذِّبين الكافرين "بِأَنْ يُبادِروا بالإقْلاعِ عن الكُفْرِ، وأَنْ يَتوبوا إلى اللّه من تَكْذيبِ النَّبيِّ ﷺ ومُكابَرَتِه"[2]، ولَمَّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 349.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 350.

كان من صفاتِ التوحيد والإيمان في السورة الحفظُ والوقايةُ، كما يحفظُ الكهفُ مَن فيه؛ ولذلك وُصِف القرآنُ في مطلع السورةِ بأنَّهُ قَيِّمٌ، فهو مُهيمنٌ على غيره من الكُتُب، ومُقيم لغيره، ومُقوِّمٌ لأمور معاش العباد ومعادهم؛ استخرَجَ التَّنزيلُ الحكيمُ مِنَ الإيمان ما يُحقِّق حفظَ العبادِ، ويُبْقيهم في دائرة الإيمان بعد أن يُرجعَهم إليها، ويَرجعوا هم إليها، ألا وهو الاستغفارُ، فتأمَّلْ هذا؛ فإنَّهُ مِنَ الدَّقائق.

فائدةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ﴾:

تجدُّدُ الاستغفارِ مانعٌ مِنَ العذاب والهلاك

عبَّرَ الذِّكْرُ الحكيم بصيغة المضارع للإشعار بوجوبِ استمرارِ استغفارِهم بعد إيمانِهم وتجدُّدِه حالًا فحالًا، ولِلتَّنبيه على أنَّ الاستغفارَ يمنعُ الهلاكَ والاستئصالَ، وفيه أيضًا إشارةٌ لطيفةٌ إلى أنَّهم دُعوا إلى التَّرقِّي في مقامات الاستغفار وكمالاته بتجديده واستمرارِه، ولو قيل: (واستغفارَ رَبِّهم)؛ لَما كان ذلكَ.

فائدةُ حذفِ متعلَّق الفعل ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ﴾:

بيانُ أنَّ كلَّ أعمال الكافرين ذنوبٌ في حاجة إلى استغفار

لمّا حُذف متعلَّقُ الفعل ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ﴾، فلم يُذكر نوعُ العمل الَّذي يستغفرون ربَّهم منه؛ أفاد الحذفُ طلبَ الاستغفار من جميعِ أعمالِهم، فكأنَّ كلَّ أعمالِهم ذنوبٌ تحتاج إلى استغفار بسبب عدم إيمانِهم باللّه وبرسولِه محمَّدٍ ﷺ، فالحذفُ للعموم، وهذا العمومُ يتشاكلُ مع التَّصريفِ المذكورِ في الآية السابقة؛ فقد كثُرت سبلُ الإبانة عن المطلوب المُراد منهم بهذا التصريفِ، فعومِلوا معاملةَ مَن كلُّ أعمالهم ذنوبٌ وآثامٌ، وهذا العمومُ يستتبعه تعظيمُ الإيمان باللّه ورسوله، والإيمانُ بالقرآن إيمانٌ بهما.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿رَبَّهُمْ﴾:

الاستغفارُ مخصوصٌ بالله المُنعِم على النّاس دون سواهُ

عُبِّر بالرُّبوبيَّة للإشعار بأنَّ الاستغفارَ مستَحَقٌّ للّه تعالى وحدَهُ؛ لأنَّه المحسنُ إليهم، فيكون الاستغفارُ استغفارَ مذنبٍ لربٍّ مُنعِمٍ عليهم بأنواعِ النِّعَم المدبِّر لأمرِهم القائم بشؤونِهم، فيُضفي على

النَّفس النَّدمَ على المعصية ومحبَّة الله تعالى المُنْعِم على العبد مع ارتكابه للمعصيةِ، وفي التَّعبير بالرَّبِّ تودُّدٌ إليهم وتقريبٌ لهم؛ لأنَّ من عناصرِ سياقِ الآيةِ الامتنانَ بالنِّعم، والتَّعبيرُ بالرَّب يستحضرُ النِّعمَ والإحسانَ بها، وفي الآية السابقة على هذه امتنانٌ عليهم بالتصريفِ في القرآنِ من كلِّ مثَلٍ، فكأنَّ المعنى في نورِ السباق القريب: ويستغفروا ربَّهم المحسنَ إليهم بأن صرَّفَ لهم في القرآنِ من كلِّ مثَلٍ، واللهُ أعلمُ.

بلاغةُ الالتفات من المتُكلِّم إلى صيغة الغائب:

الـدَّعـوةُ إلى الاعتبار بشواهدِ التّاريخ وأحوال الأمم السّابقةِ

عَدَلَ الذِّكْر الحكيم في الآية عن التَّعبير بصيغة ضمير المُتكلِّم بنون العظمة الَّذي وردَ في الآية السّابقة في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، إلى ضميرِ الغَيبةِ في قولِه: ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾، فلمّا انتقلَ الخطابُ من التَّكلُّم إلى الغيبة، دون أن يُقال: (ويسْتَغْفروني)؛ كان ذلك أحسنَ تطريةً لنشاط السّامع، وأكثر إيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، كما أنَّه لمّا كانت الآيةُ على معنى أن تكون مستقلَّة في ذاتِها؛ إذْ أُريد أَنْ يَكونَ معناها حَقيقةً مُقَرَّرَةً في نفوس المخاطَبين - كما تقدَّم في عنوانِ بلاغة الوصلِ في الآية، ومنه العدولُ عن الإضمار إلى الإظهار في لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾، كما تقدَّمَ أيضًا - جاء الخطابُ بصيغة الغيبة تقريرًا لاستقلالِ المعنى وتثبيتًا له، فكأنَّ الجملة في حُكم جملة التَّذييل في عمومِها وكلّيَّتها، لتكون الجملة "قياسًا تَمثيليًّا بشَواهِدِ التّاريخِ، وأَحْوالِ تَلَقّي الأُمَم دَعَواتِ رُسُلِهِم"[1]، وجاءَتْ صيغةُ الخطابِ أيضًا؛ لأنَّها المطابقةُ لحالهم من انصرافهم عن الإيمان والقرآنِ والرَّسولِ؛ ففيها نوعُ غضبٍ إلهيٍّ عليهم، وفي هذا من التَّرهيبِ من تركِ الاستغفارِ ما فيه، وطلبُ الاستغفارِ منهم فيه تودُّدٌ لهم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 349.

وتقريبٌ لهم، فلهذا كان في صيغة الخطابِ نوعُ غضبٍ، ولم يكن فيه كلُّ غضبٍ، أيْ: لم يكن فيه الغضب القويُّ البالغُ الَّذي يصِلُ إلى حدِّ السَّخَطِ.

دلالةُ ﴿وَمَا﴾ و﴿إِلَّآ﴾ في الآية الكريمة:

الإصرارُ على الكفران مُؤذِنٌ بالعذاب والهلاكِ والهوان

لمّا كان القصرُ بـ(ما) و(إلّا) يُسلك مع مخاطَب مرتكبٍ للخطأ، ويصرُّ عليه[1]؛ أفاد التَّعبير بأسلوب النَّفي والاستثناء في الآية أنَّ المشركين المكذِّبين كانوا يُنكرون أن يكونَ شركُهم بالله، وعدم إيمانِهم بالقرآن، وبالرَّسول محمَّد ﷺ سببًا في أن يأتيَهُم العذاب الَّذي سنَّه الله تعالى على الأمم الماضية المكذِّبة لرُسلِها، أو في أن يعتريَهُم العذاب عيانًا بأصنافِه وأنواعِه، وكانوا يُصرّون على هذا الإنكار بتماديهم في شركِهم وطغيانِهم، فجاء الحصرُ بهذا الأسلوبِ؛ للإيذانِ بأنَّهم مُخطِئون في اعتقادِهم وفي إصرارِهم على خطئهم.

بلاغةُ مجيءِ الكلام على طريق الاستثناء المُفرَّغ:

التَّهديدُ والوعيد المخيف لونٌ من الزَّجر والتَّعنيف

جاء الكلام على طريق الاستثناء المُفرَّغ، فإنَّ قوله: ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ﴾ فاعلُ ﴿مَنَعَ﴾، وفائدته الاستثناءُ من أعمِّ الأحوالِ، بمعنى: أنَّه ما منعهم أيُّ مانعٍ من الإيمان والاستغفار ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾، فالكلامُ على التَّهديد والوعيد والتَّأسُّف كما تقدَّم.

بلاغةُ إسنادِ المنْعِ إلى المصدر المؤوَّل ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ﴾:

التَّكذيبُ بكتاب الله ورسوله الصّادق جزاؤهُ العذابُ الماحق السّاحق

يُحتمل أن يكونَ إسنادُ الفعل ﴿مَنَعَ﴾ إلى المصدر المؤوَّل ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ﴾ على تقدير حذف مضافٍ، ليكون تقديرُ الكلام: (ما مَنَعَ النّاسَ أَنْ يُؤْمِنوا؛ إذْ جاءَهُمُ الهُدى، ويَسْتَغْفِروا رَبَّهُم إلّا طلبُ أن تأتيَهُم سنَّة الأولين)، أو (إلّا انتظار أن تأتيهم سنَّة الأوَّلين)، فالكلامُ على حذفِ المضاف وإقامة المُضاف إليه مقامَه[2]، ونكتتُهُ

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 294.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 729، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/ 285، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 230.

بيانُ أنَّهم بسبب شدَّةِ طغيانِهم وعظيم كفرِهم بتكذيبِهم بالقرآن واستهزائِهم بالرَّسول ﷺ ليس لهم إلّا العذابُ، ليكونَ الكلامُ على سبيل المبالغة في التَّهديدِ والوعيد، لعلَّهم يخافون، فيؤمنوا، ويستغفروا، وفيه كنايةٌ عن أنَّهم كانوا يعتقدون عَدمَ صِدقِ الأَنبياءِ فيما وُعدوا به من العذابِ، كما قال حِكايَةً عن بَعْضِهِم: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ [الأنفال: 32][1]، كما يُحتمل أن يكون على معنى الوعيد والتهديد لهم بالعذاب، كأنَّه قال: إنَّهم لا يؤمنون إلى أن يأتيهم العذابُ، فحينئذٍ يؤمنون، ولا ينفعهم إيمانُهم، كما تقول في الشاهد لعدوك: ما تريد إلّا أن أقتلَكَ، ولا شكَّ أنَّه لا يريد ذلك، كأنَّ المعنى: إنَّما يمتنعون من الإيمان لأعذِّبهم[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالمصدر المُؤوَّل: ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ﴾:

عبَّر بصيغة المصدر المُؤوَّل للإشعار بأنَّ الإتيانَ المذكور ليس له أيُّ وصفٍ يُقيِّده، أيْ: إنَّ الذي منعهم من الإيمان والاستغفار طلبُهم أو انتظارُهم مطلقَ إتيانِ العذاب؛ إمعانًا في كفرِهم وطغيانِهم، فكأنَّهم كانوا يطلبون، أو ينتظرون أيَّ عذابٍ يأتيهم تكذيبًا للرَّسول ﷺ وللقرآن، كما أنَّ في مجيء المصدر المُؤوَّل توسُّلًا إلى ذِكْر الفعل المضارع الذي يفيد تجدُّد إتيانِ سنَّة الأوَّلين لكلِّ كافرٍ ممتنع عن الإيمانِ، ويصدُّ عنه، وهذا فيه من الترهيب ما فيه، كأنَّه إنباءٌ بحصولِ الإتيان المذكور لهم وقت التلقّي.

الإمعانُ في الكفر والتَّكذيب يُفضي إلى استعجال العذاب القريب

توجيهُ المُتشابه اللَّفظيِّ في ورود ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ في الكهف دون الإسراء:

جاء في سورة الإسراء قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: 94]، وفي سورة الكهف: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ

اختيارُ اللَّفظِ المناسبِ للمقامِ المناسبِ من بلاغة القرآنِ الكريم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 194.
(2) أبو المُظفَّر الرّازيّ، مباحث في التفسير، ص: 208.

رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فوردَ في سورة الكهف: ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾، ولم يَرِد في سورة الإسراء.

وتوجيهه: أنَّ آية الإسراء تقدَّمها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء: 89]، فبالغ العُتاة من قريشٍ في شنيع اقتراحاتهم، وتوغَّلوا في مطالبهم المُفصحة باليأس من فلاحهم، فحصل من جملة حالهم بُعدُهم عن الإنابة إلى الإيمان، فلم يكن ذِكْرُ الاستغفار ليناسب هنا؛ لأنَّه إنَّما يكون ممّا لا يبلغ الكفر من المعاصي، هذا الغالب في وروده وفي الإفصاح به، فلمّا كان الواردُ في آية الكهف من وصف حالهم لا يبلغُ مبلغَ الوارد في آية الإسراء في الإفصاح بتردّيهم وطغيانِهم؛ ورد فيه ذِكْرُ الاستغفار، ألا ترى أنَّ قوله تعالى قبل آية الكهف: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[1].

توجيهُ المُتشابه اللَّفظيّ باختصاص سورة الإسراء بردِّ الشُّبهات:

استحضارُ سياق (الكهف) للكتب السّابقةِ وجزاء مُنكريها

قالَ اللّه تعالى هنا: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾، وقال في سورة الإسراء: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: 94]، والدّاعي لما اختُصَّتْ به سورةُ الإسراء أنَّ سياقَه مبنيٌّ على إيراد أقوالِ أهل الكفرِ وأسئلتِهم من قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: 85]، وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ .... قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: 90 - 93]، ثم قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: 94]، فكان مِن البلاغةِ والتُّناسب أن يكون

(1) زكريا الأنصاريّ، فتح الرحمن: 1/ 333.

المانعُ على وتيرةِ ما قبلَه، وجاريًا على نسقِه ليلتئمَ معه؛ لأنَّ ما قبلَه يُنْتِجُ إنكارَهُم أنْ يكون اللّه قد بعث بشرًا رسولًا، وأنَّه لو أراد أن يُرسل رسولًا؛ لأرسلَ ملَكًا، فقد طلبوا مِن رسولنا ﷺ أمورًا خارقة للعادة؛ ليظهرَ بها بأنَّه غيرُ عاديٍّ، فيؤمنوا بهِ، مع أنَّ القرآنَ الذي هو معجزتُهم فيه ذلك، وقد أبصروه بأنفسِهم وذوائقِهم البيانيَّةِ.

واختُصَّتْ سورةُ الكهف بما اختُصَّتْ بهِ؛ لأنَّ مَطْلعَها تأسَّسَ على استحضارِ الكُتُبِ السّابقةِ، بالتَّعبيرِ عن كلام اللّه بالكتابِ، وبوصفِه بأنَّه قيِّمٌ، وفي ذِكْرِ: ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلًا﴾ استحضارٌ قويٌّ لهم أيضًا، ولأنَّ مطلعَ السورة فيه وصفٌ للقرآنِ الكريم: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾ [الكهف: 2]، فكان هذا من الخطوطِ المعنويَّةِ الَّتي تجري في باقي آيِ السورةِ، ومِن الإنذارِ بالبأسِ الشَّديد ذِكْرُ معنى: ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلًا﴾، ثمَّ إنَّ السّورةَ بُنِيَت على ذِكْرِ جملةٍ مِن القصصِ، والقصصُ يستحضرُ ذكرَ الأوَّلين الصّالحين والطّالحين، ومن ثَمَّ كان مِن المناسب لذلك على الجملة ذِكْرُ ما اختُصَّتِ السّورةُ به، وفارقَتِ به الإسراء، وفي اللَّحاقِ القريب، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾، وذِكْرُ المرسلين يستدعي ذِكْرَ أُمَمهم وأقوامهم، فكان المناسبُ لذلك ذِكْرَ هذا المعنى.

فائدةُ الإضافةِ في قوله: ﴿سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

أُضيفَ لفظ ﴿سُنَّةُ﴾ إلى ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ لأنَّها سنَّةُ اللّه فيهم، ولأنَّها جاريَةٌ عليهم[1]، فكأنَّهم اختُصّوا بها، ويحتمل أن تكون الإضافةُ من إضافةِ المَصْدَرِ إلى فاعِلِه، أي: السُّنَّةُ الَّتي سَنَّها الأوَّلونَ[2]، وعلى

التَّنديدُ بانتظار الهلاكِ والاستئصال، كما كان حال الأوَّلين في المآل

(1) أبو حفص النَّسَفيّ، التّيسير في التّفسير: 10/ 99.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 350.

معنى السَّببية، أيْ: تَسَبَّبَ الأوَّلونَ في سَنِّها، بما اقترفوا مِن سيئات وآثامٍ، أعلاها الكفرُ باللّه والشِّرك به ﷻ مع قيام الأدلَّة الواضحة لهم على بطلانِ ذلك، وثبوتِ حقِّيَّة عكسِه.

بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾:

عادةُ اللّه في الأوّلين المكذِّبين للرُّسل أن يذيقَهم سوءَ العذاب

لّما كان المُرادُ من ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ عادةَ اللّه المألوفة في الأوّلين الَّذين كذَّبوا رسلَهم؛ كان المُراد لازمَهُ، وهو العذاب، بحيث إذا ذُكر لفظ ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ ينتقل منه إلى لازمِه، وهو عذابُ اللّه في الأوَّلين، وبلاغةُ الكناية كامنةٌ في زيادة التَّخويف الحاصلة بذِكْر المُكنَّى به دون التصريحِ بالمُكنَّى عنه مباشرة.

فائدةُ مجيءِ ﴿أَوْ﴾ في السّياق المحكم:

تهديدُ الكافرين بتنويعِ عذابِ اللّه عليهم مِن مقاصدِ التَّركيبِ

لّما كانت كلمةُ ﴿أَوْ﴾ لأحدِ الشَّيئَيْن على معنى التَّقسيم بمعنى تهديد المخاطَبين بأحد الأمرَيْن المفضي إلى الإبهام على المخاطَب، وكان المُرادُ من قوله: ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ العذابَ المعهود الَّذي سنَّهُ اللّه تعالى في الأمم السّابقة، والَّذي كان أنواعًا من العذابِ، ففيه إبهامٌ في نوعِ العذاب وطريقته، وكان المُرادُ من قوله: ﴿يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾: العذابَ غيرَ المعهودِ الَّذي يقع فجأةً؛ دلَّت ﴿أَوْ﴾ على المغايرة بين العذابَيْن، فظهرت فائدةُ التَّقسيم، ولا تكرارَ في ذِكْر العذاب[1].

بلاغةُ الكنايةِ في الآية الكريمة:

أعذارُ الكافرين المانعةُ من الإيمان إلى زوال وبطلان

لّما ذكر اللّه تعالى أنَّ المشركين بين حالَيْن؛ فإمّا أن تأتيَهُم سُنَّة الأوَّلين، وإمّا أن يأتيَهُمُ العذاب في الدُّنيا أصنافًا؛ أفاد بطريق اللّازم أنَّهُ ليس لهم أيُّ مانعٍ يمنعهم مِنَ الإيمان ومن الاستغفار والتَّوبة لّما جاءهم الهُدى، فالأعذارُ زائلةٌ، فلِمَ لم يُقْدِموا على الإيمان[2]؟ وينتقل من هذا اللّازم إلى لازمٍ آخرَ، هو الإخبارُ بأنَّهم

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 525.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 12/ 457.

مُسترسِلون في كُفرِهم وطغيانِهم وعُدوانِهم وظلمهم، وفي هذه الكناية تحذيرٌ وتهديدٌ لهم، وحثٌّ على المبادرة إلى الإيمانِ، وإلى الاستغفار من الكفر.

بلاغةُ المجازِ العقليِّ في إسْنادِ مَنْعِهم مِنَ الإيمانِ:

التَّعجيبُ من طغيانِ الكافرين الَّذي تجاوز حدودَ العقل

في الآية مجازٌ عقليٌّ بإسناد المنع إلى الفاعل الذي هو سببُهُ، والأصلُ أن يُسندَ إلى ما هو سببٌ في استحقاق سُنَّة الأوَّلين وهذا العذاب، وفي إسنادِ المَنْع إلى المذكورِ بيانُ تمكُّنِ مستوجباتِ سُنَّة الأوَّلين والعذاب ورسوخِها فيهم، وإحاطتِها بهم، واستغراقِهم فيها، وذلك شأنُ الذي يُعْرِضُ عن القرآنِ، وقد صرَّفَ اللّه فيه للنّاس مِن كلِّ مَثَلٍ.

دلالةُ إيثارِ خَتْمِ الآيةِ بلفظ ﴿قُبُلًا﴾:

معاينةُ العذابِ وتنوُّعُهُ نوعٌ من العذاب

انتصبَ لفظُ ﴿قُبُلًا﴾ على الحال، ولمّا كان ﴿قُبُلًا﴾ مُفرَدًا في اللَّفظ، جمعًا في المعنى لكونِه اسمَ جنسٍ؛ صحَّ أن يقع حالًا من ضمير الجمع في ﴿يَأْتِيَهُمُ﴾ ومن لفظ ﴿ٱلْعَذَابُ﴾، فعلى تقدير مجيئِه حالًا من ضمير الجمع يكونُ المعنى: أو يأتيهم العذاب معاينين له، وعلى تقدير مجيئِه حالًا من لفظ ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ يكون المعنى: أو يأتيهم العذاب معاينًا لهم أو للنّاس، وعلى تقديرِ أن يكونَ ﴿قُبُلًا﴾ بمعنى: الأصناف؛ فالمعنى: أو يأتيهم العذاب حالَ كونِه أصنافًا وأنواعًا[1]، وخُتِمت به الآيةُ، ولم يُقدَّم على الفاعل مثلًا؛ للإشعار بنهايةِ أمرِهم، وهم يعاينون العذاب، أو: والعذاب يعاينهم؛ كما عاينوا الحقَّ بالتصريفِ المذكورِ في الآيةِ السابقة؛ فقد تأخَّر: ﴿قُبُلًا﴾ إلى أن يكون موقعُهُ في آخرِ الآية؛ ليُشكِّلَ مع التصريفِ المذكورِ في صدر الآية السابقة مشهدًا كُلِّيًّا، طرفاهُ العامَّانِ الدُّنيا والآخرة، وطرفاه الخاصّان: عرْضُ القرآن المُصرَّف فيه للنّاس من كلِّ مثلٍ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 285، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 195، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 109.

عليهم، ونهايتُهم الأليمة المُمسِكةُ بالطَّرفِ الأوَّلِ إمساكًا قويًّا، وقد ترتَّبَ على مراعاة ذلك الغرضِ المعنوي ميزةُ موافقةِ فاصلة الآية: ﴿قُبُلًا﴾ لفاصلة ما قبلها: ﴿جَدَلًا﴾.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في لفظ ﴿قُبُلًا﴾:

تنـوُّعُ الصّيغِ وفقَ القراءات، مفيدٌ في تنوُّع الدَّلالات

قَرَأَ ابْنُ كثيرٍ وأَبو عَمرٍو ونافعٌ وابْنُ عامر ويعقوب: ﴿قِبَلًا﴾؛ بكَسْر القاف وفتح الباء، وقَرَأَ عاصِم وحَمزَة والكسائي وخلف العاشر وأبو جعفر: ﴿قُبُلًا﴾ بضَمِّ القاف والباء[1]، فمَن قرأ: ﴿قِبَلًا﴾؛ فهو من المقابلة، والمَعنى: (أَو يَأْتيهم مقابِلًا ومعاينةً)، ومَنْ قرأ: ﴿قُبُلًا﴾؛ فهوَ جمع: قَبيل، والمَعْنى: (يأتيهم العَذاب ضُروبًا وأنواعًا)، كما يحتمل ﴿قُبُلًا﴾ أن يكون بمعنى المعاينة كذلك[2].

وهاتانِ القراءتانِ تُناديانِ على معنى قولِه سبحانه وبحمده في السياقِ القريب: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، وتُلاحِظانِه، وتُؤسِّسانِ عليه، فإنَّ المُحدَّثَ عنهم قد عايَنوا الحقَّ المطلوبَ منهم الإيمانُ به، وأبصروه، وشاهدوهُ بقوةٍ؛ لأنَّه كائنٌ في القرآنِ الذي صرَّفَ اللّه فيه للنّاسِ مِن كلِّ مثَلٍ، فللمعنى الواحدِ أكثرُ مِن صورةٍ مِن صوَرِ المعاني، وبهذا التَّصريفِ قد واجَهَ القرآنُ عقولَهم وقلوبَهم ونفسيَّاتِهم على تنوُّعها وتعدُّدها وتغايرها، فقد نوَّعَ لهم المعاني والأدلَّة، وضرَبَ لهم الأمثالَ المختلِفةَ، ثم انصرفوا عن القرآنِ الذي تلك صفتُه، وهاتيكَ حالتُه، فكان الجزاءُ مِن جنسِ العملِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المنع والصَّدُّ:

المـنـعُ صـدٌّ عن الموجود، والصدُّ حـيـلـولـةٌ دون الـوصـول إلى المطلوب

المَنْع يكون عن إيجاد الفِعْل، بمعنى: أنَّ الشَّيء يكون موجودًا،

(1) ابن الجَزَريّ، النّشْر: 2/ 311.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 269، وابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 393، والأزهريّ، معاني القراءات: 1/ 380، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 285.

ويُمنع منه، ولهذا ذُكِرَ المنع من الإيمان بعد أن جاءهم الهُدى، وأمّا الصَّدُّ؛ فهو اعتراضٌ بشيءٍ قويٍّ للحيلولة دون الوصول إلى المطلوب، فيصرفُ المُقبلَ، ويردُّه، كما أنَّ المنع يكونُ لَمَنْ له قصدٌ، ولَمَنْ ليس له قصدٌ، وأمّا الصَّدُّ؛ فهو المَنْعُ عن قصد الشَّيء خاصَّةً، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الأنفال: 34]، أي: يمنعون النّاسَ عن قصدِه، وفي المنع يُقال: مَنَعَ الحائطَ عن الميل، ولا يُقال: صدَّهُ عن الميل؛ لأنَّ الحائطَ لا قصدَ له، ويقولون: صدَّني عن لقائِك، أيْ: عن قصدِ لقائك[1]، فالمنعُ أقوى من الصَّدِّ، وهو المناسبُ لحالِ أولئك المجرمينَ الذين رفضوا الإيمان مع أنَّ الله قد صرَّفَ في هذا القرآن للنّاس مِن كلِّ مَثَلٍ، فهم أسوأُ نموذجٍ بشري من أهل الكفر والشِّرك.

السُّنَّة والطَّريقة والعادة:

السُّنَّة تكون على مثالٍ سابق وصورةٍ معلومةٍ، بحيث يكون على تسويةٍ خاصَّةٍ وهيئةٍ يتميَّز بها الشَّيء من بين غيره، ويُعْرَف، وأصل السُّنَّة الصّورة، ومنه يُقال: سُنَّة الوجهِ، أيْ: صورتُهُ، وسُنَّة القمرِ، أَيْ: صورتُه، وأمّا الطريقة؛ فهي السّيرة والمذهب والحال، وفيها معنى الامتداد؛ لأنَّها بمعنى السَّبيل، ولا يُشترط في الطَّريقة أن يكون لها مثالٌ سبق، وأمّا العادة؛ فهي بمعنى تكرير الشَّيء وتجدُّدِه حتّى يُداوَمَ عليه، فالعادة اسمٌ للمداومة على الفعل[2].

السُّنَّة انتهاجُ مثالٍ سابق، والطَّريقة السّيرة، والعادة تكرير باطِّراد

المقابلة والمواجهة:

المقابلةُ أن يُقْبِلَ بعضُهم على بعضٍ، بحيث يكون أحدُ الشَّيئَيْن مقابلًا للآخر، ويتَّجه إليه في حالةٍ معيَّنةٍ، فيلزم منه أن يُعاين أحدُهما الآخرَ، ويُشاهدَهُ حقيقةً أو حُكمًا، والقُبُلُ: هو مقدَّمُ الشَّيء

المقابلةُ كونُ أحد الشَّيئَيْن مقابلًا للآخر، والمواجهة مقابلةُ الوجه للوجه

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 311.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 226، والرّاغب، المُفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤصَّل: (سنن)، و(طرق).

الَّذي يُتَّجَهُ إليه منه لملاقاتِه أو النَّفاذ فيه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلًا﴾، للإشعار بأنَّ العذابَ يأتي إليهم لملاقاتِهم عيانًا، ولينفذ فيهم، فيستأصلهم، وأمّا المواجهةُ؛ فهي بمعنى مقابلة الوجه للوجه، وفيها معنى الوجاهةِ والحظوة، ومنه: فلانٌ وجْهُ القومِ، أيْ: عينُهم ورأسُهم ونحو ذلك[1].

(1) الراغب، المفردات وجبل، المعجم الاشتقاقي: (قبل)، و(وجه).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثلاثون،
سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 30 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-27-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 30 : المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-27-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725630 بتاريخ 2024/11/04م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»